عدد الأنبياء

سؤال: كم عدد الأنبياء؟ وهل كانوا جميعًا من الرجال؟ ولماذا؟

الجواب: بُعِث الأنبياء في أرجاء الأرض كافّة، لكن لا نعرف عددهم يقينًا، ففي رواية أنهم ١٢٤ ألفًا[١٥]، وقيل: ٢٢٤ ألفًا، لكن إسناده واهٍ، فالمهم أنه ﴿**وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ**﴾ (سُورَةُ فَاطِرٍ: ٢٤/٣٥).

لم تُخَصَّ منطقة أو مجتمع بالأنبياء بل بُعثوا في مختلف البلدان والأقطار؛ ﴿**وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ**﴾؛ وهذا نصّ قاطع في ذلك، وهو يدلّ على أنّ كلّ مجتمع في الأرض ظهر فيه نبي؛ ويقول الله تعالى: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا**﴾ (سُورَةُ الإِسْرَاءِ: ١٥/١٧)؛ أي إن الله تعالى لا يحاسب ولا يعذب أمة لم يبعث فيها رسولًا، فذاك خلاف رحمته الواسعة؛ وآية ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾ (سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ: ٧/٩٩-٨) دليلٌ على أنه لا عمل بلا جزاء خيرًا كان أم شرًّا، ومن لم يُبعث فيهم نبيّ لا يمكنهم التمييز بين الخير والشر؛ فلا يمكن حسابهم وعقابهم، ومعلومٌ أن الله تعالى سيحاسب الناس جميعًا على ما قدّموا من خير أو شرّ؛ إذًا لا بدّ أنّهم جميعًا قد بُعث فيهم أنبياء، وبيّن الله تعالى هذا فقال: ﴿**وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ**﴾.

هذه الأسس الثلاثة سلسلة منطقية مترابطة، وسأحاول أن أعرض عليكم الآن القضية الأساسية:

(١٥) المسند لأحمد بن حنبل، ٦١٩/٣٦؛ صحيح ابن حبان، ٧٧/٢؛ المستدرك للحاكم، ٦٥٢/٢.

أرسل الله تعالى الأنبياء إلى أنحاء الأرض كافّة في مختلف العهود والأزمان؛ فدعوى أن الأنبياء ظهروا في شبه الجزيرة العربية فقط تدحضها نصوص القرآن الكريم؛ نعم، لا نعرف يقينًا عدد الأنبياء في شبه الجزيرة العربية ولا في أي قطر آخر؛ وسواء أكان عدد الأنبياء ١٢٤ ألفًا أم ٢٢٤ ألفًا فلا نعرف سوى ٢٨، فضلًا عن أن ثلاثة منهم لا ندري أكانوا أنبياء أم لا.

أجل، فغاية ما يمكننا القول هو: إن القرآن الكريم ذكَر ٢٨ نبيًّا فقط منذ آدم عليه السلام حتى نبيّنا محمد ﷺ، وغالبهم لم يُعرَف أين ظهروا؛ فمثلًا يقال: قبر آدم عليه السلام في مدينة "جدة"، ولكن ما مدى صحة هذا القول؟ فالروايات عن لقاء آدم عليه السلام بأمّنا حواء في جدة لم تبلغ درجة الصحة؛ فلا نعرف أين بدأ آدم عليه السلام حياته وبلّغ رسالته.

قد نعرف أكثر عن سيدنا إبراهيم عليه السلام؛ إذ جاب بابل وما حول الأناضول ثم ذهب إلى الشأم؛ ونظن أنّ النبي لوطًا عليه السلام بلّغ رسالته بين عاد وثمود حول بحيرة لوط "البحر الميّت"، وأن شعَيبًا عليه السلام بُعِث في مدينة "مدْيَن" وموسى عليه السلام في مصر، ويحيى عليه السلام وزكريا عليه السلام في منطقة البحر الأبيض المتوسّط، ثم الأناضول على احتمال؛ فآثار عيسى عليه السلام وأمه مريم عليها السلام في "أَفَس" تشير إلى هذا؛ ولكنها جميعًا ليست بروايات قطعية الثبوت.

ولا نعرف شيئا عن الأمكنة التي نشأ فيها الأنبياء عدا الثمانية والعشرين، فلا معلومات يُوثَق بها في هذا، لا سيما أن آثار تلك الشرائع اندثرت ومُحيت معها آثار النبوة، فمن العسير -والحال كذلك- القطعُ بأنّ نبيًّا قد أرسل أو لم يرسل.

إذا تناولنا النصرانية مثلًا نرى أنها انحرفت بمرور الزمن، فناقضَتْ مفهومها الأول؛ إذ أُهملت عقيدة التوحيد وحلّت محلها عقيدةُ "الأقانيم الثلاثة"؛ فمُنيت النصرانية بأكبر خيانة على يد بعض أتباعها، فحرّفوا الكتاب الذي جاء به المسيح عليه السلام من عند الله، وكان الكتابُ سماويًّا، فأصبح بشَريًّا، وجاء بالتوحيد فاتُّخذ مصدرًا للتثليث، فمنهم من ادعى أن المسيح هو ابن الله -حاشا لله- وأنَّ أمَّه الصديقة مريم جزءٌ من حقيقة الألوهية؛ وضلّ آخرون أفظع أنواع الضلال بقولهم: تجسّد الله وحلّ في الأجسام.

فأيّ فرق يُذكَر بين هذه النصرانية الوثنية وبين عقيدة اليونان الوثنية وآلهتها من أمثال "زيوس" و"أفروديت (*Aphrodite*)"؟ فمن حرفوا كتابهم ألهوا عظماء دينهم مثلما اتخذ اليونان عظماءهم آلهة، فأشركوا.

هكذا بدأت جميع الانحرافات في تاريخ البشرية، ثم استمرت وانتشرت، ولو لم ينص القرآن الكريم أن عيسى عليه السلام نبي كريم وأن أمه صديقة فسننظر إلى عيسى وأمه عليهما السلام نظرة اليونانيين إلى "زيوس" و"أفروديت".

شرائع كثيرة شُوّهت وحرِّفت على يد البشر، فمحي الوجه السماوي منها واندثر، فيكاد يكون من المتعذر أن نعرف هل بُعث نبي في مجتمع أو منطقة أو قطر ما أم لا؟ فمَن يدري فقد يكون "كونفوشيوس" نبيًّا، ولا نقطع بهذا بل هو احتمال، وليس في تاريخ الأديان ما يشفي الغليل في هذا؛ فالمعلومات في هذا الشأن مبتورة مبعثرة؛ ولكن التاريخ ذكر "كونفوشيوس" و"بوذا" وأنهما جاءا بِدينيْن ولهما أتباع كُثُر، ونعلم أن فيهما شذوذًا وأخطاء فادحة، فما أبعدهما بوضعهما الحالي عن الفطرة السليمة

وعن السنن الربانية؛ فمن عبادة للبقر وإحراق النفس إلى صيام يصل ستة أشهر مع الانزواء في المغارات؛ فلا يمكننا قبولهما بوصفهما دينًا.

ولكن ربما انبعثا في السابق من منبعٍ حقّ، ثم أصابهما ما أصاب الأديان الأخرى المحرَّفة من تحريف وتبديل وتغيير، فصارَا نظامًا بشريًّا بصبغة دينية.

لو لم يحافظ المسلمون على منابع دينهم بكل دقة واهتمام لحلَّ بالدين الإسلامي ما حلّ بغيره؛ ولا نستطيع أن ننفي وجود محاولات من هذا القبيل في الماضي والحاضر، فهناك مسلمون غافلون وهناك ذوو أغراض يحاولون القيام بالشيء نفسه بتأويلات مصطنعة؛ فمثلًا من المسلمين من يعتقد أنه يطبق الإسلام كما يجب رغم معاقرته الخمر واستمرائه الزنا، فهذا مثال على الهدم الفعلي للدين، وقس على ذلك السرقة والقمار والربا.

لا نستطيع أن نقول: كان "كونفوشيوس" نبيًّا، فإسناد النبوة إلى غير نبي كفر كإنكار نبوة نبي، وما قلناه عن "كونفوشيوس" وبلده يُقال في أوروبا أيضًا، ولكننا لا نعلم شيئًا، فلا نؤكّد ذلك.

قالوا كثيرًا عن "سقراط"، ولكن لم تنقل سيرته كلها إلينا، فهل كان فَيلسوفًا تأثر باليهودية، أم أنّ له فكرًا آخر؟ لا نعلم شيئًا يقينيًّا؛ فبعض المفكرين يراه فيلسوفًا متأثرًا بالفكر اليهودي؛ ولكن الوثائق التاريخية لا تعزز مثل هذا الرأي، ذكر "أفلاطون" أن "سقراط" قال عن نفسه:

"تتراءى لعيني أشياء -قد تكون خيالًا- توحي إليّ بأمور فيها هدًى للناس، ومنذ صباي علمتُ بأنني مكلّف بهداية الإنسانية وتعريفها بالله"؛ فلو أنّ كلامه حقّ لأمكن عدُّه نبيًّا للمجتمع الأوروبي الأقرب إلى الفكر

والفلسفة؛ وأذكّر بأنني لا أقول بنبوة سقراط، فلو لم يكن نبيًّا لكان القول بنبوته كفرًا، بل أقول: من المحتمل أنه كان نبيًّا.

إننا لا نعرف أين بُعث الأنبياء سوى أربعة منهم؛ وأُخبرْنا أنه ما من أمة إلا بُعث فيها واحد من هؤلاء الأنبياء، وبناءً على هذا سنشير إلى أمارات دالة على ظهور الأنبياء في أنحاء العالم كلها وإن كنّا لا نعرف عددهم يقينًا ولا أين ظهروا:

الأمارة الأولى: ذكر لي عادل زينل ابن كركوك العراق وأستاذ الرياضيات بجامعة الرياض، قال: "في دراستي العليا بأمريكا اختلطت بالزنوج والهنود الحمر، فتفاجأت بما في الشعائر الدينية لهذه القبائل من أسس تطابق عقيدتنا؛ فمثلًا يقولون: "الله لا شريك له، فلو كان هناك إلهان لفسد الكون"؛ وهذا يطابق الآية الكريمة: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا**﴾ (سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ: ٢٢/٢١).

فهؤلاء الزنوج لو لم يهمس إليهم نبيٌّ بهذه الحقيقة لَما قدروا على التوصّل إليها بأنفسهم؛ وكانوا يقولون: "إن الله لم يلد ولم يولد"؛ وهذا مؤشر على ذهن قد نُوِّر؛ فالولادة من خصائص المخلوقات، ومصدرها الحاجة، والله تعالى منزَّه عنها؛ فأنى لهم إدراك هذا لو لم يأتهم نبي يعلّمهم ذلك؟ فيستحيل وجود مثل هذه العقائد الإلهية الراسخة العميقة إلا في أمم متحضرة متعلمة لا في قبائل بدائية ما تزال ترقص حول النيران، أو تذبح الشيوخ والمعمَّرين وتأكل لحومهم؛ فالاحتمال الوحيد هو أن نبيًّا بلغهم بهذه الحقائق، فأُشربتها أرواحهم.

الأمارة الثانية: يقول المفكر الدكتور المصري مصطفى محمود:

> "إن القراءة المتأملة لأديان الزنوج البدائيين تدل على أنه كان لهم رسل ورسالات سماوية مثل رسالاتنا.

فـي قبيلـة "الماو مـاو" مثـلًا نقرأ أنهـم يؤمنون بإله يسـمونه "موجايـى" ويصفونـه بأنـه واحد أحد لـم يلد ولم يولـد وليس له كفـو ولا شـبيه... وأنه لا يرى ولا يعرف إلا من آثـاره وأفعاله... وأنـه خالـق رازق وهّـاب رحيم يشـفي المريض وينجـد المأزوم وينزل المطر ويسـمـع الدعاء ويصفونه بـأن البرق خنجره والرعد وقـع خطاه.

أليـس هـذا "موجايى" هو إلهنا بعينـه... ومن أين جاءهم هذا العلم إلا أن يكون في تاريخهم رسـول ومبلـغ جاء به... ثم تقادم عليه العهد كالمعتاد فدخلت الخرافات والشعوذات فشوهت هذا النقاء الديني.

وفـي قبيلـة "نيام نيـام" نقرأ أنهـم يؤمنون بإله واحد يسـمونه "مبولـي" ويقولـون أن كل شـيء في الغابة يتحرك بـإرادة "مبولي" وأنه يسـلط الصواعق على الأشـرار من البشـر... ويكافئ الأخيار بالرزق والبركة والأمان.

وفـي قبيلـة "الشـيلوك" يؤمنـون بإلـه واحد يسـمونه "جوك" ويصفونـه بأنه خفي وظاهر.. وأنه في السـماء وفي كل مكان وأنه خالق كل شيء.

وفـي قبيلة "الدنكا" يؤمنون بإله واحد يسـمونه "نيالاك" وهي كلمة ترجمتها الحرفية... الذي في السماء... أو الأعلى.

مـاذا نسـمي هـذه العقائـد إلا أنهـا الإسـلام، ومـاذا تكـون إلا رسـالات كان لهـا فـي تاريخ هـؤلاء الأقوام رسـل، إن الدين لواحد"(١٦).

فلـو لـم يأتهم نبيّ يبلغهـم هذه العقائد لاسـتحال عليهم أن يعرفوها بأنفسـهم؛ فالأنبيـاء هم من قاموا بالتبليـغ والنشـر لهذه العقيـدة المتوارثة بينهم حتى عصرنا هذا.

(١٦) مصطفى محمود، حوار مع صديقي الملحد، ص. ١٦-١٧.

obeikandl.com

ويشير القرآن الكريم والواقع والحقائق التاريخية إلى أنه ما من بلد إلا بعث فيها نبي، وإن لم نعلم عددهم يقينًا.

وهل كان من الأنبياء نساء؟ أهل السنة والجماعة وجمهور المحدّثين يقولون: المرأة لا تكون نبيًّا؛ والروايات الواردة بنبوة مريم وآسية ﷺ متروكة واهية، والخلاصة أنه لا قطع بظهور أنبياء من النساء؛ لكن عدم إرسال نبية لا يعد نقيصة للنساء؛ فالله تعالى خلق الأشياء كلها على أساس الموجب (+) والسالب (−)؛ فالأشياء المتشابهة تتنافر، ولولا وجود قوة عازلة في أجزاء الذرة تمسكها لتنافرت الأجزاء المتشابهة وتفككت النواة؛ وهذا القانون مطرد في كل الأضداد السالبة والموجبة من أجزاء الذرة إلى المجرات؛ أما الإنسان المكوَّن من ذرات فهو عنصر توازن بين العالم الصغير (عالم الذرات) وبين العالم الكبير (الأجرام السماوية)، وهو سيد عالمنا هذا، وتجري عليه القوانين نفسها، أي يجب أن يكون فيه زوجان مختلفان لكي يتم التجاذب بينهما، فالضعف والحنان من أحدهما والقوة من الآخر هو الذي ألّف بينهما، وبه بنَيَا عائلة كما في الذرات والمجرات.

وتحويل المرأة إلى رجل، أي صنع امرأة مسترجلة لم يعد يقابل اليوم إلا بالسخرية أو بالامتعاض أحيانًا، ولما أخرجوا المرأة عن أنوثتها وجعلوها مسترجلة، وأخذت تبحث عن مجالات أخرى تعبر فيها عن شخصيتها، فقدت العائلة تناغمها وطمأنينتها، وحُرِمَ الأبناء جوَّ العائلة، فوُضعوا في المحاضن ودور الرعاية، والآباء والأمهات في جو آخر يلهثون وراء متعهم.

القانون الإلهي العام في المرأة يتجلى أيضًا في موضوع "هل تكون المرأة نبية؟".

للمـرأة حالات لا توجد عند الرجل، فلو كانت نبية لعجزت مثلًا عن أداء واجب النبوة وعن الصوم والصلاة والإمامة نحو عشرة أيام في الشهر أيـام الحيض، والنِّفاسُ كذلـك، وفي فترة الحمل يغدو أداء وظائف النبوة أصعب؛ فيسـتحيل عندئذ أن تحارب وتضـع الخطط العسـكرية والإدارية وفـي حضنهـا أو بطنهـا طفـل، والنبي يجـب أن يكون فـي الصف الأول في المعارك.

هـذه الأمـور يسـتحيل معها ظهـور نبية من النسـاء؛ أجـل، فكل هذه الأمـور مـع الموانـع الجسـدية والوظيفية لدى المـرأة تجعلها قاصرة عن أداء وظيفة النبوة؛ وأشار سيد السادات ﷺ إلى هذا الأمر، فوصفهن بأنهن "**نَاقِصَاتُ عَقْلٍ وَدِينٍ**"[١٧].

أجـل، فالمـرأة معـذورة نحـو نصـف شـهر، وعندمـا تلـد لا تصلي ولا تصوم وتترك عبادات أخرى يحرم عليها أداؤها في تلك الفترة، ناهيك بالطبـع عن القيام بوظائف النبوة.

والنبي يُقتدى به ومرشد كامل يُسترشد به وإمام وقائد، وأما الأحكام التـي تتعلـق بأمور النسـاء فنسـاء الأنبيـاء هنّ مصـدر التبليـغ والإرشـاد والتعليم فيها.

(١٧) صحيح البخاري، الحيض، ٦؛ صحيح مسلم، الإيمان، ١٣٢.

opeikandi.com

إصرار الشيطان على الكفر

سؤال: لماذا يصرّ الشيطان على الكفر وهو يعلم أن مآله إلى جهنم؟

الجواب: الشيطان هو المطرود من الوقوف بين يدي الله، المحروم من رحمته، الذي لم يُحسِن استغلالَ الفرص التي في يده بل صيرها وبالًا عليه، وخسر في وقتٍ هو أدعى للكسب؛ فهو بهذا فريسة لدورٍ فاسدٍ تتابع فيه، وهو بحاله هذه لا يستطيع أن يشعر بالحق ويدركه؛ فالشيطان اغترَّ أوَّلًا وتكبر وقال: ﴿**أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ**﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ١٢/٧)، وجال أول جولة في الدور الفاسد بهذه الفكرة الجدلية الشيطانية الأولى وخطا أول خطوة نحو الدوامة القاتلة، وسدّ أبواب الاستغفار كلها بِطِينة الحُجَج والمعاذير، وهذا الكلام فيه ما فيه من عُجبٍ وكبر طافح، وبهذا الفعل تشكلت أول حلقة من حلقات الدور الفاسد.

ارتكب الشيطان هذا الذنب، أما آدم عليه السلام فإنه أخطأ ومدّ يده إلى الشجرة المحرمة، لكنه لما أدرك الأمر أناب إلى الله وقال: ﴿**رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ٢٣/٧)، فلم يتشكل عنده الدور الفاسد ونجا إذ حالت المغفرة بينه وبين الذنب؛ أما الشيطان فدافع عن نفسه بحجج شيطانية، وأبى الاعتراف بذنبه رغم تحذير الله له، وقال: ﴿**أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ**﴾ فهلك، ثم غدا العدوَّ اللدود لبني آدم، تأمل كيف أعلن عن نفسه: ﴿**فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ (سُورَةُ ص: ٨٢/٣٨)، ﴿**ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ**﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ١٧/٧)؛ أي سيكفرون النعمة ما عاشوا، فسترزقهم ويعبدون سواك، تغرقهم بالنعم ويجحدونك...

obeikandl.com

وكثيرًا ما تحدّث القرآن الكريم عن مبارزة الشيطان في هذا، وعداوته لبني آدم، وعصيانه لربه ﷻ؛ فأفضى به العصيان إلى الطرد من رحمة الله، فعندما قال ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ أخزاه الله؛ ونجم عن أعذاره التي هي أقبح من ذنوبه وعن عداوته اللدود لبني آدم التي أكّدها باليمين والقسم طردُهُ كلية من مستقرّ رحمته ﷺ حيث الإيجابية والرقة والرفعة؛ ثم خضع كلية للمنطق الشيطاني، وغمغم قائلًا: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فاختار الغواية طريقًا، وكلما غوى ابتعد، وكلما ابتعد ازداد حنقًا، فتخلقت عنده فطرة أخرى امتزجت بالفساد والكفران، وكلما ابتعد ازداد بغيًا، وكلما طُرد تمادى في الجهر بحقده وبغضه وغيظه وكبره وعجبه؛ حتى إنه بارز الله في الكلام وجادله، فابتعد عن رحمة الله، فأدى به ذلك إلى العصيان، وساقه العصيان إلى الابتعاد، فوقع فريسة للدور الفاسد، وكُتِب عليه "الختم الإلهي"، أي خُتم على قلبه، فهذا يعني أنه لم يعد لديه شيء سوى التفكير في الشر، وانغلق كل طرق الخير عنده وانطفأت مصادر النور كافّة.

وإليكم مثالًا على هذا ليتيسر فهمه: الإنسان كائن مكرم جدًّا، فيمكن أن يرتقي إلى مرتبة الملائكة إن استغل المقومات التي وُهبت له، فلو أنّ إنسانًا قمّة في الشفقة والمواظبة على أداء العبادات من صلاة وصيام وزكاة وحجّ، وله علاقة طيبة بالناس، فجاء يوم هُتك فيه عرض هذا الإنسان الكامل وانتهكت كرامته وأوذيت مشاعره وأُهين، فتجشّم جهازه العصبي يومًا بعد يوم أعباءً كالجبال الرواسي، حتى ضاق صدره في فترة ما فانفجر فورًا، ثم ما عاد يُعنَى بالرفق أو العفو أو التسامح، فتطايرت منه شهب الحقد والكره، فلن ترى منه وقتئذ إلا حقدًا وغضبًا كأنه شرر تطيره نار جهنم، ولن تجدي معه النصيحة شيئًا.

وكل فرد رأى وعاش أمثال هذه الحالات في حياته؛ وهكذا الشيطان، فهو كائن تضطرم نيران الحقد والكره والغيظ بين جوانبه ولدى عشيرته وسلالته في كل حين؛ فلا همّ له طول حياته إلا التفكير في الشر، ولن يفكر وهو في هذا الضيق والتوتر السلبي إلا في الكيد لبني آدم، ولن يجد فرصة للتفكير في الخير ألبتة، لأن جوانبه تفيض بالشر؛ فهو يفعل هذا وإن كان يعرف الله من ناحية ما، كما أن المؤمن الغاضب ينسى الليـن والوداعة أثناء غضبه مع أنه يؤمن بالله؛ وهكذا الشيطان لا يتذكر الله بل يكفر به رغم أنه يعرفه؛ لأن بين جوانبه ما يحول بينه وبين ذلك.

وهناك كثير من الناس وقعوا فريسة مثل هذه الأشياء الخبيثة كما وقع الشيطان فريسة لمثل هذا الدور الفاسد؛ سقطوا فريسة لمثل هذه المشاعر والأهواء الخبيثة، فعبدوا أصنام النفس والأنانية، ولا يمكن أن يقال: إنّ أحدًا معصوم من هذا الأمر؛ فضماننا الوحيد نحن المؤمنين هو ثقتنا بالله وحسن ظننا به؛ هو حسبنا ونعم الوكيل.

اللهم إنا نعوذ بك أن نسلك شيئًا من الطرق الشيطانية.

obeikandl.com

obeikandl.com

دابة الأرض

سؤال: هل هناك علاقة بين "الإيدز (*AIDS*)" و"دابّة الأرض" التي تعدّ من علامات يوم القيامة؟

الجواب: ما زال هذا السؤال يُطْرَح لأنّ مضمونَه مسألة يومية مستحدثة، وفي كل مرة أحاول أن أذكر بعض الأمور، وتقديرًا لرغبة السائل سأحاول عرض الموضوع مرةً أخرى:

معنى "دابة": كائن حيّ يدبّ ويمشي على الأرض؛ وقد ذُكِرَ لفظ "دابة" و"دابة الأرض" في الكتاب والسنة، فمثلًا: لما ذكر الله ﷻ الكائنات المختلفة التي تمشي وتزحف وتدبّ على الأرض قال: ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (سُورَةُ النُّورِ: ٢٤/٤٥)؛ أي ما ذُكر هو ما تعرفونه حتى الآن، وهذا الحكمُ عامّ في الكائنات كلِّها من أصغرِها إلى أكبرِها، من الديناصورات إلى الماموث قديمًا والأفيال ووحيد القرن حديثًا؛ وهناك أشياء أخرى من أنواع شتَّى لا تعلمونها ستُخلَق لاحقًا إن شاء الله، ولعلّ منها الإيدز، بل قد تُخلق كائناتٌ شتّى متنوعة حسب الجو والمناخ، وربما لا تكون كائناتٍ حيةً بل مِن نوعٍ آخر.

وجاء في القرآن عندَ ذكرِ رزق الدوابّ: ﴿**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**﴾ (سُورَةُ هُودٍ: ١١/٦)، ﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ (سُورَةُ العَنْكَبُوتِ: ٢٩/٦٠)؛ أي هناك دوابّ كثيرة ضَمِن ربُّ العزة ﷻ رِزْقَها ورِزْقَكم وتكفَّل به، فهو وحده المربّي المُقيت.

openkanal.com

وعبارة "دابة الأرض" يذكرها القرآن الكريم في موضع واحد عند ذكر موت نبي الله سليمان عليه السلام: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ (سُورَةُ سَبَإٍ: ١٤/٣٤).

أما الدابة محلّ البحث فذُكرت في سورة النمل، يقول ربنا عز وجل: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ (سُورَةُ النَّمْلِ: ٨٢/٢٧)؛ والمعنى: رُفعت الأقلام وجفَّت الصحف، وقمتم بوظيفة العرض (عرض أسماء الله الحسنى بوجودكم على الأرض)، وأنهى معرض الأرض وظيفته؛ وكان مرادُ الله من افتتاح هذا المعرض معرفته والتعرف عليه والتعريف به، فإذا ما قلّ عددُ العارفين بالله والمؤمنين به واطّرد ذلك يومًا بعد يوم حكم الله على الناس بالمحوِ والفناء؛ فأخرج دابّةً من الأرض تكلمهم بأنّ حكم الله المذكور قد تمّ، وهي دابّة تتكلم بلسان حالها أو مقالها أو بمكبر صوتٍ خاصٍّ بها، تعلن أنَّ الناس لن يؤمنوا بربهم من الآن فصاعدًا، أي ارتفع الإيمان وقلّ في الناس مَن يؤمن، فوقع للإيمان جفوة وضعف وانحسر.

وتلت هذه الآية آيات تتحدث عن يوم القيامة، وهذا يوحي بأن هذه العلامة من العلامات الكبرى للساعة.

إنّ دابَّة الأرضِ مِنْ علاماتِ الساعة العشر[١٨]، ولعلَّها من الآياتِ الأخيرة التي تظهر قبيل الساعة؛ وسياقُ الآية يقتضي أنَّ الإيمانَ سيرتفع من الأرض وينحسر مَدُّهُ وحركته، ويجفُّ وينفد كل ما هو من الإسلام، ولن يخلف المؤمنين مؤمنون آخرون، ولن يزداد المؤمنون بعدئذٍ يقينًا في إيمانهم؛ فربما تتقدَّمُ الفلسفة والعلوم الطبيعية، وتحرز التقنية

(١٨) صحيح مسلم، الفتن، ٤٠.

والتكنولوجيا نجاحًا باهرًا، وتطغى رغبة جامحة في الاختراع لدى الناس من زراعة أطفال الأنابيب إلى اختراع الإنسان الآليّ، وتُوكَل إليهم إدارة العالم؛ فيطوف هؤلاء البُله في بقاع الأرض يقولون: "ها قد خَلقْنا"، ولا يقرّون بوجود الله، وهذا مفهوم من سياق الآية وسِباقها.

وَذَكَر النبيُّ ﷺ هذه المسألة كما جاء في القرآن الكريم، وأشارَ إلَى ما ستضطلع به دابّة الأرض من أمور[١٩].

أما عن علاقة دابّة الأرض بالإيدز فأريد أن أنوّه أولًا بأنَّ بعض إخوانِنا من ذوي نوايا حسنة يريدون تأكيد الكتاب والسنة بالبحث عن موافقة بين ما ورد فيهما وما ظهر في أيامنا من أحداث ومكتشفات.

وهذه المحاولات هدفها من جهة ما التوفيقُ بين قضايا ذُكرت في الكتاب والسنة والمسائل العلمية والتجريبية صوابًا كانت أم خطأً، وإثباتها في وجه تيارات العلوم الطبيعية والوضعية والعقلانية؛ وذلك لعرضها أمام إنسان عصر العلم والتجربة وبيانها له؛ هذا ولربما تتعرض تلك المحاولات للنقد لاحقًا لكن أرى أنّه لا ينبغي التعجل في القطع بسلبيتها تمامًا.

والحقُّ أنَّ الكلماتِ النورانيّة في الكتاب والسنة لا تفتقر إلى العلوم الطبيعية أصلًا، فالضمير الإنساني يتلقَّاها دائمًا بالقبول لِمَا انعكس عليه منها من بيانٍ ونور.

علاوة على أنه ليس لي ولا لأحد أن ينتقد مثل هذه المحاولات التي هدفها التوفيق والتأليف بين القرآن والسنة وبين العلوم الطبيعية إذا ما قام بها أصحابها لنفض الغبار عن عقولنا؛ وأمّا إن كان هدف هذه المحاولات

(١٩) انظر: سنن الترمذي، تفسير القرآن، ٢٧؛ مسند أبي داود الطيالسي، ٣٩٥/٢.

obeikandi.com

غيرَ ذلك كحمل حقيقة القرآن والسنة على نظريات العلوم الطبيعية مثلًا، فنقول: إنها هزيلة هشَّة أضعف من أن تَحْمِل هذه الحقائق السامية؛ إذ كيف نَثِقُ بهذه الأدلة وهي في حالتها هذه لا قطع فيها ولا ظنّ غالب؟ فمن يضمن ألا تهبّ عاصفة علمية أخرى تفنّد هذه الآراء وتبطلها؛ ثم أليس تأصيل آيات القرآن وأحاديث النبي ﷺ بأمورٍ واهية كهذه وبناءُ تصديقنا بالقرآن والسنة على العلوم الطبيعية، أليس هذا من سوء الأدب مع حقائق نَذَرْنا أنفسنا للدفاع عنها؟!

أما الإيدز ودابة الأرض فالمسألة كما تعلمون إحدى القبائح الّتي أطلّت برأسها في هذا العصر؛ وأرى أنّ من الباطل تصوير الباطل، لا سيما مسألة مخزية مخجلة مثل الإيدز، وسأحاول الآن شرح الموضوع على نحوٍ لا يلوث العقول الصافية:

لو صحّ أن الإيدز فرد من أفراد جنس دابّة الأرض، فلن يصحّ القول بأن الإيدز هو دابّة الأرض؛ لأن تأويل الآية به لا غير يبطل حقيقتها إذا ما تبين فساد هذا التأويل، فكم من مرض مدمّر تفشّى حتى اليوم ثم اندثر واضمحل، قال رسول الله ﷺ: "**مَا أَنْزَلَ اللَّهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً**"(٢٠).

وفي رواية: "**لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ**"(٢١).

وفي حديث آخر: "**تَدَاوَوْا، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ دَوَاءً، غَيْرَ دَاءٍ وَاحِدٍ: اَلْهَرَمُ**"(٢٢)؛ وفي رواية: "**إلا السام**"(٢٣) يعني الموت، فلا ريب أن كلّ امرئ سيشيخ ويفنى، ولا دواء للهرم والموت، وكلُّ داءٍ سواهما له دواء.

(٢٠) صحيح البخاري، الطب، ١.

(٢١) صحيح مسلم، السلام، ٦٩.

(٢٢) سنن أبي داوود، الطب، ٤١؛ سنن الترمذي، الطب، ٢.

(٢٣) السنن الكبرى للنسائي، ٨٢/٧.

obeikandl.com

كيف نجمع بين هذا وذاك؟

انتشر هذا المرض "الإيدز" في مناطق من العالم، لكن لم نسمع به كثيرًا في بلادنا والحمد لله؛ ونحن مدينون في هذا للأخلاق والمبادئ العالية التي أرساها الإسلام، وهي إن أعرضت عنها عقولنا لكن لم تتبرأ منها أرواحنا؛ ولم ينتشر الإيدز حتى الآن انتشار السل أو الطاعون قديمًا أو السرطان حديثًا؛ كان يمكن وربما يجب أن يقال عن تلك الأمراض أو عن سرطان اليوم إنه دابة الأرض؛ لكن السلّ والطاعون تلك الأمراض التي كانت مثيرة للذعر سابقًا انسحقت بالأدوية التي خلقها الله، فلم تعد تُذكر في قائمة أفراد جنس "دابة الأرض"، وها هو السرطان يستغلّ آخر حصونه، والعقبى للإيدز.

قديمًا كان الطاعون كابوسًا فظيعًا يجثم على صدور العباد، لكَ أنْ تتخيل كيف قضى هذا المرض دفعة واحدة على نحو ثلاثين ألفًا في طاعون "عَمَواس"، ما أفظعها من حادثة! ولا يُصاب بهذه النوعية من الأمراض في عصرنا سوى دول مُنيت بالإهمال؛ فلو أُوّلت الآيات والأحاديث قبل أن يُرفع الطاعون كما يؤولون اليوم لكان القول بأنّ دابة الأرض هي جرثومة الطاعون أحقّ وأجدر؛ لأنه كان منتشرًا جدًّا ومرعبًا.

وهكذا السرطان ما أكثر من أصيبوا به الآن، يقول أهل الاختصاص: لا يمكن اكتشاف الخلايا السرطانية التي تظهر على إنسان ما إلا بعد زمنٍ طويل تغدو فيه تلك الخلايا خطرًا لا يُقاوم؛ وتشير الإحصائيات العالمية اليوم إلى أنّ نسبةَ السرطان بلغت حدًّا يثير الذعر في القلوب؛ لكن يتعذر حتى الآن أن يقال إنهم اكتشفوا له دواءً، لكنهم يحاولون، وكلنا أمل أن يعثروا له على دواءٍ بفضل الله وعنايته؛ فلو أمكن تأويل دابّة الأرض

بمرض فأرى أن السرطان أحد الاحتمالات الحرِيّة بالذكر في هذا الباب؛ بل إنَّنا لو قارنَّاه بالإيدز في ضوء الواقع فلن يبلغ الإيدز ١/١٠٠ منه؛ ولو بحثنا المسألة بحثًا كميًّا لوجدنا أمراضًا كثيرة واقعة تفوق الإيدز؛ وإن بحثناها من ناحية الكيفية من حيث إنه مرض ليس له دواء، فإن عُثر له على دواء أفلا تتزعزع ثقة الناس في الحديث الشريف؟

وأستميحكم عذرًا لأسلط الضوء قليلًا على أحد الأحاديث:

إن بعض الناس يؤولون الآيات والأحاديث على عجل دون تدبّر مدّعين أنهم يقدمون أمورًا علمية نافعة، فنراهم يؤولون حديث رسول ﷺ: "**فِرَّ مِنَ المَجْذُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الأَسَدِ**"[٢٤] بأن جرثومة الجذام تشبه الأسد تمامًا، وهذا تأويل قيل على عجل؛ ولم يلحظ هؤلاء هل لهذا الأمر ضرر أو نفع على الدين إذا ما تبين بالمجهر في المستقبل أن هذه الجرثومة لا تشبه الأسد؛ فتأويلهم للحديث طُبع في أذهان الناس وكأن الحديث يقول بهذا، فإذا ما ظهر خطأ التأويل تحت المجهر فسيُنسَب هذا التأويل المنافي للواقع إلى سيدنا رسول الله ﷺ، فيُضرب بالحديث عُرْضَ الحائط حاشاه من ذلك.

ولذا من الضرر والخطأ أن نذكر أمورًا كهذه دون معرفة جيدة بماهية الأمر، ولا يقتصر الأمر على مثل هذه التأويلات الواهية، بل علينا -حتى عند إخضاع القضايا الإسلامية لأسلم التأويلات وأحكمها- أن لا نغفل الاحتمالات الأخرى، وأن نُفسح المجال لتأويلات بديلة يحتملها النص؛ خصوصًا في يومنا الذي تزعزعت فيه الفلسفة الوضعية المنطقية، وغدت محلَّ شكٍّ وارتياب؛ ومن أوسعِ الأفكار انتشارًا في الغرب فكرةُ تلافي

(٢٤) صحيح البخاري، الطب، ١٩.

الأخطاء تدريجيًّا للوصول إلى علم لا خطأ فيه، عملًا بمبدأ "كل شيء فيه شيء من الخطأ"؛ وهذه الفكرة أيضًا خاضعة للنقد كبقية المناهج الفكرية الأخرى، لكنها مهمة من وجهٍ ما، إذ إنها تعبير عن زلزالٍ حَلّ بسلطان المذاهب الوضعية والعقلية.

إذًا لما كان هذا القدر من الشك والريبة قد دخل العلوم التجريبية التي يُظنّ صحّتُها وقوتها الآن فمن الجناية على النصوص الشرعية تأويلها بنظريات لا وزنَ لها ولا قوَّة في حين ندّعي أننا نعزّز دلالتها ونقوّيها؛ وقد عالجتْ هذه المسألةَ في أيامنا كتبٌ لا ثمرةَ تُرتَجَى منها؛ أجلْ، مَا أَكْثَرَ ما كُتِبَ عن هذا في زمنٍ يسيرٍ، لكن قريبًا ستأتي أجيال تقرأ هذه الكتب، فتسخر منها وتنسب ذلك إلى عجزنا عن استيعاب هذه المسائل؛ أمّا مَن يبحث القضايا بمنظور أوسع واحتمالات شتّى ويذكر أوجهًا عدة للمسألة الواحدة، فستغدو أبحاثه متجدّدة مبتكرة وستبقى غضّة عذبة صافية نقيّة مهما طالت السنون ولو بلغت المِئِين؛ أجل، بين أيدينا آثار قديمة كُتبت على هذا المنوال لا تزال غضة طرية.

ومن الخطأ الاعتراف بصحة ما نسميه أدلة أولًا ثم ترتيب المدعَى والنتيجة عليه، والحال أنه يمكن بلوغ النتيجة بالتدلي من أعلى إلى أسفل، فنقول مثلًا: الله موجود، وهذه الأدلة شاهدة على وجوده؛ ورسول الله ﷺ خاتم النبيين، وتلك الأدلة تشهد بذلك، ويشهد بتلك الحقائق أيضًا صغارُ النمل والكائنات المجهرية التي لا تُرى بالعين... وهذه النظرة غير تلك التي تبدأ بأدلة واهية ضعيفة للاستدلال على وجود مَن له مقاليد السموات والأرض.

وأرى أن أناسًا أخطؤوا تأويل مسألة الإيذ لخطئهم في وجهة النظر، ولهؤلاء المؤمنين المخلصين الأجر على اجتهادهم؛ لكن بينما

نجـد لاحقًا أهلَ الإجحاف مـن الملحدين يتذرّعون بهذه التأويلات نُلفي أبطالَ الإيمانِ والقرآنِ هؤلاء مقنعي رؤسـهم حياءً وخجلًا من تأويلاتهم الفاسـدة؛ ومـن ثم فعلى كل مؤمن أن يتحـرى الدقة في كلامه وآرائه عند حديثه عن الكتاب والسنة ومسائلهما.

لـو قال إخواننا الذين يتناولون هذه المسـألة بنيـة خالصة، ربما يكون الإيـدز فـردًا مـن أفـراد جنس دابـة الأرض، فعلـى الرأس والعيـن ما دام مقصدهم ونيتهم كذلك إن شاء الله.

أجـل، ربما يكون الإيدز بل والسـرطان الذي مـا زال يُفني ويُبيد فردًا من أفراد جنس دابّة الأرض، ويؤدي وظيفة من وظائفها؛ إلا أن هذا لا يعد سببًا كافيًا لأن نطلق على كلّ منهما دابّة الأرض؛ لأن خروج دابة الأرض أمارة على نقص إيمان الناس؛ وربما يكون سـبب خروجها سـوء توظيف النـاس للتقنيـات والعلوم الحديثة؛ فدابـة الأرض بمعناها الخاص بها أمرٌ خـارق للعـادة، تختلف عن أي شـيء حتـى عن أفراد جنسـها، ولها حالة خاصّـة بهـا، ويتعذر إدراكها لغرابتهـا، وخروجُها دلالة على نهاية رسـالة القيم الإسلامية على وجه الأرض.

كيف وإننا نقول اسـتنادًا إلى حديث شريف أخرجه الإمام مسلم: "**إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَـارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا**"[٢٥]، أي إنّ صوت الإسلام سيدوّي في أنحاء العالم كافّة، وستكنّ لـه الضمائـر كل توقيـر وتبجيـل؛ فلو خرجـت دابـة الأرض الآن لكانت ضربـة قويـة تُطيـح بآمالنا؛ لأن دابـة الأرض إذا خرجت قالـت: لا إيمان ولا تصديـق بعـد هـذا؛ ويلـي ذلـك سـقوط وتخلـف؛ وإننـا علـى يقين

(٢٥) صحيح مسلم، الفتن، ١٩.

بـأنّ الإسـلام سـيرفرف بجناحيه في أرجـاء العالم كلها، ويكـون له وزنه فـي مراكـز القوى العالمية؛ وسـيأتي يوم يولـع فيه المسـلمون في أنحاء العالـم كافـة بالبحـث عن النبـي ﷺ ليجتمعـوا به بعد فـراق كحال هؤلاء الذين نراهم اليوم؛ نحن ننتظر خروج دابة الأرض لاحقًا، ففي عقيدتنا أنّها تخرج قرب قيام السـاعة على الكفار؛ وأي قول غير هذا مخالف لعقيدتنا وضربة تحطّم آمالنا.

دع مـا ذُكـر، إنّ هنـاك مخلوقات كثيـرة تتصورها الأذهـان ويحتمل أن تكون هي دابة الأرض؛ منها الإنسـان الآلي الذي يشـغل أذهان كتّاب الخيال العلمي، ويُعتقد أنّه سـيتحكم في مصير الإنسـانية، ويشـير القرآن الكريم بقوله: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (سُورَةُ النَّحْلِ: ٨/١٦) إلى أنّ "مَا لاَ تَعْلَمُونَ" لا يسمعونكم ولا يطيعون، وعن الرحمة لا يفقهون، ولبكائكم وأنّاتكم لا يلتفتون، ولا شـيء من رحمتهم وشفقتهم بتضرعاتكم وتوسلاتكم تستجلبون.

ومثار القلق الآن أن المتخصصين في التقنيات يقولون: هذه الأشـياء بعـد برمجتها وضبطها وإطلاقها في الفضاء ربما تحرق الأرض وتدمّرها، وإن طُلـب منهـا أن تكفّ أبتْ وتحولت إلى عامل فسـاد مطلق على وجه الأرض، تقلب كل شيء رأسًا على عقب حتى يُظنّ أنها ستصبح فردًا من جنس الدابّة.

وهـذا القدر من الحديث أيضًا حكمٌ صدر سـريعًا على عجل، فلا بد من الدقة والعناية؛ إذًا ما ظهر الآن من تقنيات عملاقة وميكروبات دقيقة، وما سـيظهر من عجائب كالإنسـان الآلـي والأمراض الوبائيـة والكائنات الدقيقة، بل والأمراض التي لمَّا يُعرف اسمها بعد وستظهر في آخر الزمان

نتيجة مجازر سترتكب يموت فيها الملايين... كل هذا قد يمثل دابةَ الأرض التي هي اللسان المبين عن موت الأرواح أوّلًا ثم الأجساد.

وأرى أن هذه النظرة إلى المسألة من شأنها أن تحفظ هيبة القرآن والسنة وقدْرَهما، وتحافظ على أبعادهما الإلهية.

وبعد، فأقول بكل صدق إن هؤلاء الإخوة المخلصين الذين تحدثت عنهم آنفًا ولم أوفّهم حقهم يخطئون في مسألة تتطلب شروطًا كثيرة الإخلاصُ شرطٌ واحد منها فحسب؛ فالإخلاص شيء، وتوقير الكتاب والسنة والولاء لجوهرهما شيء آخر.

obeikandl.com

"أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ"

سؤال: هل من دليل عقلي على سؤال ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ وعلى جواب ﴿بَلَى﴾؟

الجواب: بعض المسائل يصعب إثباتها عقليًّا، لكن يمكن بحث إمكانيتها وعدم استحالتها؛ وإذا قال الله تعالى شيئًا فلا مجال لأي اعتراض؛ ولهذا السؤال شِقّان:

١- أحَدثَ هذا الأمر؟ وإذا حدث فكيف يمكن أن نبرهن عليه؟

٢- هل يدرك المؤمن هذا الأمر؟

أوَّلًا: هل قوْل الله تعالى في عالمٍ ما للأرواح "ألست بربكم؟" وقولهم "بلى" ثابتٌ قطعًا؟

ورد هذا الموضوع في القرآن الكريم: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ**﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ٧/١٧٢) تحدثت الآية عن العهد الذي أخذه ربنا على بني آدم، واختلف المفسّرون قديمًا وحديثًا في الزمن الذي أخذ فيه هذا العهد.

يرى بعضهم أنَّ الله تعالى أخذ هذا العهد على ذرات الإنسان التي ستتألف بعدئذ وستحل أرواحها فيها.

وقال المدقّقون منهم: "يؤخذ هذا العهد عند نفخ الروح في الإنسان"، ويستدلون على رأيهم هذا ببعض الأحاديث الشريفة.

openkalisi.com

والحقيقة أنّ كلام الله تعالى مع مخلوقاته له أشكال مختلفة، فنحن مثلًا نتكلم بأسلوب ونمط معيّن، ولنا أيضًا أساليب أخرى في الكلام النفسي واللفظي، ولنا مشاعر باطنة وظاهرة، ولنا عقل وروح، وظاهر وباطن، فنستعمل هذه المشاعر أيضًا بين فينة وأخرى لنوصل رسائلنا إلى من يفهمها.

وللقلب لغة خاصة يتحدث بها لكن لا أحد يسمع حديثه، فإذا قيل: "بماذا كنت تحدث نفسك؟" لأجَبنا "كذا وكذا" أي نحوِّل ذلك الحديث النفسي إلى كلمات مرتَّبة.

وللأحلام حديثها الخاص، نتحدث ونسمع كلام الآخرين، ولا يسمع من بجوارنا هذه الأحاديث، وعندما نستيقظ نروي للآخرين ما قلناه وما سمعناه في الحلم.

ولعالم المثال حديثه الخاص، فهناك من يرى مشاهد وهو يقظ ويتكلم مع أشخاصٍ من ذلك العالم في اليقظة؛ قد ينكر المادّيون هذا ويقولون: "إنها ليست إلا خيالات وأوهامًا"؛ فليقولوا ما يقولون، فهذا كان من مظاهر تصديق الرسول ﷺ؛ تُعرض أمامه مناظر من عالم المثال ومن عالم البرزخ، فينقل ﷺ ما سمعه هو وما رآه.

وللوحي نوع وطرز آخَر في الحديث، فرسولنا ﷺ يأتيه الوحي، فيشعر به ويسمعه ويعي عنه، ولكن كان هذا في بعد مختلف، فليس غير الرسول ﷺ يسمع أو يفهم شيئًا، ولو كان الوحي شيئًا ماديًّا لسمعه الآخرون كذلك، خاصّة أنه كان يأتيه أحيانًا ورأسه على فخذ إحدى زوجاته أو على صدر صحابي وركبته على ركبته، فيسمعه ﷺ ويتلقاه ولا يسمعه أو يحس به من حوله؛ يتلقاه ويحفظه عن ظهر قلب، ثم يبلغ به الآخرين، وهذا طرز آخر من الأصوات والأحاديث.

ولقلب الولي طرز آخر من الكلام، يأتيه كالهمس في قلبه، وهذا الطرز شبيه بالتخاطب بوساطة الشفرات، فكما يقال في شفرة مورس: "دي.. دي.. دا.. دا.. ديت" ويفهم المستقبل معناها، كذلك يقال فيما يرسل إلى قلب الولي ليستخرج منه معاني، فمثلًا يقول الولي: "فلان ابن فلان أمام الباب الآن" فيفتحون فيجدونه أمام الباب.

وظاهرة "التخاطر (*Telepathy*)" طرز آخر من الكلام، وعلماء اليوم يتوقعون التخاطب به في المستقبل؛ أي التواصل بين قلب إنسان مع قلب آخر وتخاطب الناس فيما بينهم باطنيًّا؛ ويدل هذا كلُّه أن الله تعالى خلق ما لا يعد ولا يحصى من أنواع الكلام والخطاب.

ولنرجع إلى موضوعنا، قال تعالى: ﴿**أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ**﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ١٧٢/٧)؛ لكننا لا نعرف ولا نستطيع أن نعرف كيف قال وتحدث، فإن كان إلهامًا يُلهَمه الولي فلن يكون حديثًا بصوت؛ فإن كان حديثًا للروح فهو ليس بحديث للجسد، وإن كان للجسد فهو ليس للروح.

هذه النقطة مهمة جدًّا: قياس ما يراه الإنسان ويسمعه في عالم المثال وعالم البرزخ وعالم الأرواح بمقاييس عالمنا هذا خطأٌ جسيم؛ فالصادق الأمين ﷺ أخبرنا أن منكَرًا ونكِيرًا سيسألاننا في القبر، كيف يا ترى هذا السؤال؟ وهل سيخاطبان روح الميت أم جسده؟ أيًّا كان المخاطَب فالميت سيسمع، ومَن حوله وبجواره لا يسمعون شيئًا، ولو وضعت مسجلًا ووصلت مكبر صوت بالقبر فلا يمكن تسجيل أي صوت، لأن الخطاب يتم هنا في أبعاد أخرى؛ وكما أشار "أينشتاين" وغيره إلى وجود بُعد رابع وخامس، فالمسألة تختلف باختلاف الأبعاد، وتظهر بطابع مختلف.

فقول الله تعالى: ﴿**أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ**﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ١٧٢/٧) خطاب خاص بالأرواح، فلا يمكننا أن نسمعه أو نحفظه؛ نعم، ربما انعكس هذا

في وجداننا، أي نستطيع أن نشعر به بوجداننا وبالإلهام الذي انعكس على وجداننا.

كنت مرة أشرح هذا الموضوع فقال أحدهم: "لم أسمع ذلك القول" فقلت: "لكنني سمعتُه، فإن لم تكن قد سمعتَ فهذه مشكلتك، ولكني متيقنٌ أنني سمعتُه"، فلو سُئلتُ كيف سمعتَ لقلت: سمعتُ هذا الصوت عندما شعرت برغبتي في الخلود، مع أنني محدود فانٍ.

أجل، لا أستطيع إدراك الله تعالى لأنني مخلوق محدود ومقيَّد بقيود؛ إذ كيف يستطيع المقيد أن يدرك المطلق؟ فأنا أعلم أنني سمعته وشعرت به عندما وجدت في نفسي مثل هذه الرغبة في اللامحدود وعشق الخلود؛ فمخلوق ضعيف مثلي في مثل هذا العالم المحدود يُفترَض أن يقضي حياته المحدودة ثم يموت، وتكون آماله وأفكاره محدودة بحدود عمره، لكنني وجدتني أفكر في الخلود وتثور عندي الرغبة في الأبدية، وأتلهف للجنّة ولرؤية جمال الله، فملك الدنيا كلها لا يُشبع رغباتي، فهذه الحال تجعلني أقول "لقد سمعتُه".

إن الوجدان -أيًّا كانت ماهيته- يهفو بوحداته وأبعاده لربه سبحانه، ويترنم به على الدوام، وهو لا يكذب؛ ولن يرتاح ويبلغ السعادة والطمأنينة إلا عندما يحظى بما يرغب ويطلب، وأشار القرآن الكريم: ﴿**أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ (سُورَةُ الرَّعْدِ: ٢٨/١٣) إلى أن اللطيفة الربّانية "القلب" لن يطمئن إلا عندما يبلغ الوجدان الطمأنينة.

أمر آخر: بعض الفلاسفة أمثال "برجسون" هجروا الأدلة النقلية والعقلية برمتها وقالوا: "الدليل على وجود الله تعالى هو الوجدان"؛ ووصل الأمر بالفيلسوف الألماني "كانط" أن يقول: "لكي أُدرك الله تعالى إدراكًا يليق بجلاله وعظمته؛ وأعرضت عن معارفي كلها"، وعلى هذا

الدرب سار "برجسون" بـ"الحدس"، فـ"الوجدان" عنده هو الدليل الوحيد، فالوجدان يتألم عند إنكار الله وجحوده، ويسعد ويطمئن بالإيمان به سبحانه.

وعندما يُصغي الإنسان إلى وجدانه ويغوص في أعماقه يرى ويحس هناك بوجود رغبة شديدة في الإيمان بمعبود أزلي أبدي، فهذا هو الدليل على قولهم ﴿بَلَى﴾ التي عبروا عنها بكيف مجهول في استجابتهم للخطاب الإلهي ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾. ومن يرهف سمعه للصوت الآتي من أعماق روحه فسيسمع هذا الصوت؛ أمَّا إن بحث عن هذا الصوت في عقله وفي جسده سقط في التناقض؛ فهو موجود في ضمير كلِّ فرد ومكنون فيه، ولا تتم البرهنة عليه إلا في ميدانه وفي ساحته، وقد رأى الأنبياء والأولياء والأصفياء هذا وأدركوه بكل جلاء وصفاء وبينوه وأبانوا عنه.

أمّا عقلًا فلا يستطيع العقل طبعًا إلا إثبات المحسات كإثبات وجود شجرة الصنوبر أو شجرة الدُّلب، فالاستدلال بالعقل هنا غير وارد، ولكن من أصغى إلى وجدانه، واستبطن داخله، أحسَّ وسمع ذلك الصوت وأدركه وشعر به.

obeikandl.com

obeikandl.com

نـزول القـرآن مـنـجَّـمًـا

سـؤال: مـا الحكمـة من نـزول القـرآن الكريم منجَّمًـا في ثلاث وعشرين سنة؟

الجـواب: لـو لم ينزل القـرآن الكريم في ثلاث وعشـرين سـنة، ونزل جملةً واحدة في وقت واحد لقالوا: لِم نزل القرآن جملة واحدة ولم ينزل منجَّمًا؟

هذه المسـائل وأشـباهها تعبديّـة ينبغي التسـليم بها وتوقيـر الله فيها، وإلا تكاثرت الأسئلة في كل شأن: لماذا صلاة الظهر أربـع ركعات؟ ولماذا كانـت صلاة الجمعة في يوم الجمعة؟ ولماذا كانت الزكاة ٢,٥٪ وليسـت ٣٪ ؟ وغيرهـا مـن الأسـئلة التـي لا تنتهي؛ لـذا ينبغي لنـا أن نعلم أن كل هذه الأمور من أسـرار العبودية. نعم، للصلاة حِكَم بلا شـك، فللفرد كثير من المنافـع والمصالح بوقوفه خمس مرات في اليوم بين يدي مولاه ﷻ، أمّا عدد الركعات فتوقيفية شـرعها الله تعالى بنفسـه، فلو قيل لنا: "عليكم أن تـؤدّوا هـذه العبـادة خمس مرات فـي اليوم، ولكم أن تحـدّدوا هيئتها، فالأمـر إليكـم" لَبحثْنـا في عدد الركعـات، لكن ربما يكون الشـكل الذي خطّطنا له جاريًا وفق ظروف حياتنا وأعمالنا اليومية؛ فتقدير الوحي شيء، وتقدير العقل شـيءٌ آخر؛ فالوحي يرعى معنويات الإنسان وَلَدُنّيتَه، وعلى ذلك ينسج الحِكَم.

ولنـزول القـرآن الكريم منجمًا في ثلاث وعشـرين سـنة حِكم كثيرة، فالعهـد الـذي نـزل فيـه القـرآن هـو ذلك العهـد الـذي اقترب فيه البشـر مـن الكمـال؛ لذا بُعث فيهم أكمـل الأنبياء، محلُّ نظـر الله تعالى ورحمتُه

للعالمين، سيدُنا ﷺ؛ فكان على صحابته ﷺ أن يبلغوا الذروة في الرقي، وأن يرتقوا أسمى الدرجات في معارج الكمال ليضطلعوا بتعليم الأمم المتحضرة؛ بيد أن أرواحهم وعروقهم قد أُشربَت ما كانوا عليه في الجاهلية من ذميم الطباع وسيّء الأخلاق، فكان الواجب تخليتهم من الصفات الذميمة واحدة تلو أخرى، وتحليتهم بالأخلاق الحميدة، وتغذية فِطرتهم بالطباع السليمة شيئًا فشيئًا؛ فلو نزل القرآن الكريم بأوامره جملة واحدة وكلفهم بها لَشقَّ عليهم، ولما استطاعوا أن يأتوا بكل ما أمروا به مرة واحدة، ولَتنافى ذلك طبعًا مع سنّة الإنسانية في رقيّها نحو الكمال.

وإليكم مثالًا من واقع حياتنا، بعض من ابتُليَ بالتدخين وشرب الخمر أو التسكع في الشوارع أو الجلوس على المقاهي، لو قطعتَ رأسه أو قلتَ له: "لو ذهبتَ إلى المقهى فستهلك يا أخي" لأصرّ على ذلك واختلق كثيرًا من الأعذار، ولو حدث أن مكث في البيت ولم يذهب إلى المقهى في يومٍ ما لانزوى في ركن من البيت وظل يتأفف ويتبرم، وما إن تتاح له الفرصة حتى يسارع إلى المقهى؛ لأن طرز حياته الذي طالما اعتاد عليه قد تغير، علمًا أنّها عادة هيّنة لا داعي لها.

وهاكم مثالًا آخر، لو قلت لمدمن التدخين: "أَقلِعْ عن هذه العادة، فهي تضر بصحتك، والتدخين انتحارٌ بطيء، كأني بك تطعن صدرك شيئًا فشيئًا بخنجر في يدك، ثم ما يلبث أن يفتك بك"، بل لو عمدت إلى طبيب ليحدّثه عن أضرار التدخين، ويقول له: "لا فائدة ترجى من التدخين، وله ما له من الأضرار"، لتردّد ذلك المدخن كثيرًا في أمر إقلاعه عن التدخين؛ دع عنك هذا، فبعض الأطباء أنفسهم وهم أعلم بأضرار التدخين لا يقلعون عنه.

ومدمن الخمر أيضًا؛ ذلك الرجل الذي مُسخ، وتبدلت أحواله، وتغير عالمه الداخلي، حتى إنه لو انحطّ دركة أخرى لتشابه هو وأدنى المخلوقات عنه، فإن قلت له: "أقلع عن شرب الخمر دفعة واحدة"، فكأنك تقول له: غيّر فطرتك.

وهكذا فبوسعكم أن تعدّوا آلافًا من العادات الذميمة والأخلاق السيئة التي تسري في دم الناس وعروقهم، إذا تأملتم هذا فهلموا بنا لنتفكّر في مسألة نزول القرآن الكريم منجّمًا.

أجل، ماذا فعل القرآن؟ فعل ما يفعله من يقتلع الشوك، ويحرث الأرض، وينقّيها من العلائق الضارة، ثم يزيّنها؛ أي إنه انتزع من أرواحهم سيء الطباع أولًا، ثم استبدل بها حميد الخصال، لقد عمل الكثير في زمن يسير.

وبناءً على هذا؛ فإننا نرى أن نزول القرآن في ثلاثٍ وعشرين سنة كان سريعًا جدًّا، يقول مؤلف رسائل النور: "فليأخذوا مائةً من فلاسفتهم، وليذهبوا إلى الجزيرة العربية، وليعملوا مائة سنة؛ هل يتيسر لهم أن يفعلوا جزءًا من مائة جزء مما فعله ﷺ في سنة واحدة؟!"(٢٦).

ولا يخفى على أحدٍ اليوم ما خلّفه الخمر من الدمار في آلاف البيوت! واليوم تَعقد جمعياتُ مكافحة المخدّرات مؤتمراتٍ دوريّة، اتسعت أنشطتها حتى بلغت المدارس الإعدادية والثانوية، لكن كم شخصًا اقتنع فأقلع عن شرب الخمر؟!

لو أن الجامعات بأساتذتها جميعًا بذلت كلّ طاقاتها في هذا الأمر؛ فهل يا ترى ستتمكن من أن تقنع عشرين شخصًا فقط بالإقلاع

(٢٦) بديع الزمان سعيد النُّورسي: الكلمات، الكلمة التاسعة عشرة، ص. ٢٦٨.

عـن شـرب الخمـر؟ لو أفلحـت فذلك نجـاح باهر يُسـجّل لهـا بحروف من ذهب؛ ولكن هيهات هيهات، فهذا الأمر حدث مرّة واحدة، ثم أجمع الأعداء والأصدقاء أن تكراره مرّة أخرى أمر مستحيل.

أجـل، إن نـزول القـرآن في ثلاث وعشـرين سـنة سـريع جـدًّا؛ فما فعلـه القـرآن في هـذه المدة معجزة باهـرة، وما قطعه النبـي ﷺ في ثلاث وعشرين سنة خارت قوى البشر عن بلوغه في آلاف السنين، فما اسطاعوا ولن يستطيعوا.

وبينما كان القرآن الكريم يستهدف التخلية من آلاف الخصال السيئة، كان يضطلـع أيضًـا بالتحليـة بحميـد الخصـال وتزيين النـاس بالأخلاق القرآنيـة العالية، وهيّأ الناس لقبـول هذا كلّه دون أن يبتذل أحدًا أو يجرح مشـاعره أو يثير في نفسـه ذعرًا أو يلحق بروحه أي أذى، فمعظم القضايا التـي نـزل بها القـرآن تدرّجـت علـى مراحل متنوّعـة ثم أخـذت مكانها في التطبيق، وإن تطبيقَ شـيء يسـير منها في الحياة العملية اليوم ليتطلب أضعاف تلك الفترة (ثلاث وعشرين سنة).

كانـت تلـك الفتـرة ضروريـة ليتقبـل الإنسـان إذ ذاك أوامـر ونواهي تتطلب وقتًا لتطبيقها، ولإلغاء أمور ووضـع وتأسـيس أمور أخرى مكانها؛ مثلًا حُرِّمت الخمر في تلك الفترة على عدة مراحل، وجاء النهي عن قتل الموؤودة على مرحلتين، وحُلّت مشـكلات الحياة القبلية المتشـعبة على مرحلـة أو اثنتيـن مـن خلال تشـريعات مجهِدة جدًّا، انتُزعت منهم سـيّءُ الطبـاع لتحلّ مـكارمُ الأخلاق محلَّها، فتوحدت القبائـل وحدةً ترقّت بها في أجواء الشعور الاجتماعي، فغدت قادرةً على تشكيل مجتمعها الخاص.

هذا وتقتضي الظروف اليوم نظامًا متوازنًا اجتماعيًّا -وينبغي أن تطوّع الخطـة على حسـب تغيـر الظروف في السـنوات القادمة- ثـم نظامًا آخَر

للتغيرات الواقعة في التفصيلات وَفقًا لظروف السنوات التالية، وفي هذا ضمانٌ لديمومة ما نقوم به من أعمال مع مراعاة تقلّب الزمان وطبيعة الأشياء، هكذا كان المسلمون في عصر السعادة ينمون نمو الشجرة الباسقة، ويتناغمون مع المستجدّات تدريجيًّا، ويتطورون بصورة فطرية؛ فتزايد دخولُ الناس في الإسلام وأُنسُهم به يومًا بعد يوم، وتكشفت للمسلمين أفكار ومشاعر جديدة، ثم تربّى هؤلاء المسلمون تدريجيًّا على الأوامر الإسلامية حتى غدوا بمرور الزمن أفرادًا اجتماعيين، جرت كل هذه الأمور متدرِّجةً، متعاقبةً في انسجام وتناغم، وتتابعت هذه الصفحات بعضها إثر بعض، فغدت مرآة تجلّت فيها خصائص حقيقة الإسلام الخالدة.

فلو نزل ما نزل جملةً واحدة لا في ثلاثة وعشرين عامًا لما أطاقه ذلك المجتمعُ الذي كان يعيش حياة أشبه بحياة البدو، ولنضرب لهذا مثلًا: لو تعرض إنسان للشمس فلسوف تطرأ على جلده بعض التغيرات، فإن ذهبت به إلى المناطق الباردة فلسوف تظهر عليه أيضًا تغيرات يسيرة حسب طبيعة المنطقة، لكن لا يتعرّض لتغير جذري بقوة ٢٠ طفرة وراثية ألبتة، فالكائن الحي يهلك إن تعرض لهذه النوعية من التغيرات الطبيعية السريعة.

ولو أنّ شخصًا يعيش في ضغط جوي معين ثم حلِّق فجأة ٢٠ ألف قدم مرة واحدة لمات في حينه، فالطائرة عندما تحلّق على هذا المستوى من الارتفاع تؤمن أقنعة الأوكسجين وغيرها، ثم تحلّق بمنتهى الحذر.

إذ إن التحليق ٢٠ ألف قدم دفعة واحدة يُودِي بحياة الإنسان، وهكذا فلو نزل القرآن الكريم فجأة في مجتمع اختلّ فيه مفهوم الحياة والأسرة والفرد، ثم قال لهم في حينه: "إليكم التشريع فطبقوه، وهاكم الأوامر

جميعها فنفّذوها!" لَما تقبّل أحد في هذا المجتمع ذلك؛ لأن معنى هذا أنك تريد أن ترتقي بهذا المجتمع ٢٠ ألف قدم فورًا، وهذا ما لا يُطاق؛ فنزول القرآن الكريم بأحكامه منجمًا في ثلاثة وعشرين عامًا وقراءته على الناس على مكث أليق بالطبيعة البشرية وأوفق لفطرة الإنسان.

لا يمكننا أن نفصل الإنسان عن الكون، فلا محيد إذًا عن دراسة الإنسان وفق حركة الأحداث في الكون؛ بل لا يمكن أن تفهم ماهيته بعيدًا عنها، ونحن مضطرون إلى التسليم بهذا، فالتدرج الكوني في النمو والتغيرات والقوانين يجري مثله في رقيّ الإنسان وكماله، والقرآن الكريم الذي هو أُس الرقي ومركزه ومجمع مبادئه راعى هذا الأساس فتدرّج في النزول على ثلاث وعشرين سنة.

ولله ﷻ حكمة في أن كانت هذه الفترة ثلاثًا وعشرين سنة، وكان يمكن أن تبلغ أربعًا أو خمسًا وعشرين سنة، وله سبحانه حكمة أيضًا أن عاش النبي ﷺ ٦٣ سنة، وكان يمكن أن يعيش أربعًا وستين سنة ويستمر الوحي سنةً أخرى، ولكن ما إن مضت ثلاث وعشرون سنة من نبوته حتى وافته المنيّة ﷺ واختتمت النبوة وانقطع الوحي، ولو كان ذلك لأذعنّا كذلك لحكمة ربنا في ذلك.

والله أعلم بالصواب.

obeikandl.com

محيي الدين بن عربي والشجرة النعمانية

سؤال: كيف نجمع بين الحقائق وإشارات كتاب "الشجرة النعمانية" لمحيي الدين بن عربي؟

الجواب: لم أقِفْ على هذا الكتاب مطبوعًا، وأظن أن له مخطوطات في عدة مكتبات، منها مكتبة السليمية في أدرنه.

يظهر من معظم مؤلفات محيي الدين بن عربي ومنها الشجرة النعمانية أنّه عرف بعض الحقائق كشفًا، وأخبر بغيبيات ألهمه الله بها، فهو من أهل الكرامات، وقطب أحد المشارب؛ له تأويلات ظاهرية وباطنية كثيرة، انكشفت له بفضل الله ﷻ أمور من الماضي والمستقبل كأنها صفحات كتاب بين يديه.

وذكره للحوادث المستقبلية كقوله: سيقع كذا بتاريخ كذا، أمرٌ واضح عنده ومختلف عن غيره؛ كثيرٌ من أولياء الله ذكروا أشياء كهذه بإلهامٍ وفضل من الله، لكنهم لم يبلغوا مبلغه في الوضوح والتصريح.

ومحيي الدين بن عربي ليس الأولَ والآخر في هذا المضمار، بل خلَفَه كثيرون أخبروا بأمور على هذه الشاكلة وفي هذا الاتجاه؛ ومن قبلهم جميعًا أنبأَ معلِّمُ البشرية والمرشدُ الأكمل سيدُنا محمد ﷺ بأمور وقعت وأخرى ستقع. أجل، إن سلطان السلاطين عرض أمام أنظار أمته الحوادثَ التي ستقع حتى يوم القيامة وكأنه يشاهدها على شاشة تلفزيونية؛ بعضها صريح جليّ لا يحتاج إلى تفسير أو تأويل، وبعضها

على شاكلة المتشابهات في القرآن الكريم، يتعذر فهمها إلا بالتفسير والتأويل، خصوصًا أن منها ما لا يفهمه إلا أهل التحقيق.

أما مكاشفات العارفين بالله وإخبارُهم بأمور موجّهة لنا فمرجعهم في ذلك القرآن أو السنة أو إلهامات ترد إلى قلوبهم مستمدة من مشكاة النبوة مباشرة؛ فيطّلعون على حقائق، ثم يبيّنونها للناس بلغة خاصة؛ ورجال الحقيقة الذين تنكشف لهم هذه الحقائق صلتهم بالله تعالى وثيقة، وهم برآء من الظهور والادعاء، يُجري الله على أيديهم آلاف الكرامات، ويبثون آلاف الرسائل الخفية لكنهم لا ينزلقون إلى الادعاء مطلقًا؛ الكلمة الوحيدة التي لا تفارق ألسنتهم هي: "والله أعلم بالصواب"، ولو أن الأمر هنا قام على هذا الأساس أي أنّ الله هو من يخبرهم ويُطلعهم على هذه الأمور وهو من يهب جذر الأمر ونواته، لصار الاعتراض هنا من أجل الاعتراض ليس إلا، وعندئذ لا تكون لمثل هذه الهمهمات والهمسات التي تستعلي بها النفس أية قيمة علميًّا.

عندنا مصدران مباركان سوى القرآن الكريم -الوحي المتلو- هما الأحاديث القدسية، والأحاديث النبوية، وكلاهما ينبع من وحي من الله، ولما كان النبي ﷺ أفصح العرب وأفضل من يبين عن مقاصده، وهو من يفقه معاني ما يأتيه على أفضل وجه، بلّغنا ما نُفث في روعه وما أوحي إليه وحيًا خفيًّا بأعظم بيان وأعذبه؛ وإذا كان الولي ينسب كل أمر إلى أستاذه أستاذ الكون، ويستخرج معاني من بحر علمه اللدني، فما الغرابة والعجَبُ في هذا؟!

وقد تُكشف بعض الحقائق لبصيرة الولي فيراها من بعيد -وهذا ممكن اليوم كما وقع بالأمس- إلا أن الولي ربما لا يستطيع أن يحدِّد المسافة أو يثبت الحقيقة كما هي؛ وأحيانًا يرى حادثة في صورة رمز، ولا يستطيع

أن يقف على تأويلها، فيُؤَوّلها من عند نفسه، ظانًّا أن تأويله مصيب، لكن الحقيقة الغيبية ليست كذلك. وهذا كالرؤى التي يراها الإنسان، فمثلًا ترى في منامك ذهبًا وفضة، فتظن أن الحق جل جلاله سيفيض عليك بالإحسان الجزيل، أو ستنتفع ماديًّا أو معنويًّا وستحظى بشيء ما، بيد أن الذهب والفضة في الرؤيا يُفسَّران بتعاظم قوى النفس الأمارة وغلبة أهوائها؛ وإذا رأيت في المنام جبرائيل عليه السلام يدخل من نافذة بيتك فستظن أن فيضًا إلهيًّا سينزله الله على بيتك قريبًا؛ فقد دخل الروح الأمين بيتك، بيد أن معنى هذه الحقيقة المرمز إليها بمثل هذه الواقعة تُفسَّر في عالم المثال بأن شخصًا من هذا البيت ذا روح سامية سيلحق بالرفيق الأعلى.

وإذا رأى الإنسان في منامه أنه لقي إنسانًا في صورة مستقبحة، فسيظنّ أن ذلك لأنه ارتكب ذنبًا أو سيرتكب، بيد أن هذا يؤوَّل بأن ذلك الإنسان سينتفع منه بشيء؛ وقد جرت مثل هذه الواقعة للسيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد رحمهما الله، رأت في منامها ما يرى الرجل في منامه، وأن ذلك كان بينها وبين أهل بغداد جميعًا، فخافت وارتعدت، وما كان أحرص منها على عفتها وشرفها، فسألت، فقيل لها: ستفعلين خيرًا ينتفع منه الناس جميعًا؛ فنالت السيدة زبيدة بعدئذ شرف سقاية حجاج بيت الله الحرام أي كانت سببًا في ذلك.

وهكذا الولي إن لم يدرك المعاني الحقيقية لرموز الحقائق في عالم المثال فلربما يخطئ في تأويل بعضها، ولا اختلاف حينئذ بين الحقيقة والمعاني التي يذكرها الولي من حيث النواة والبذرة، إنما الاختلاف في الإجمال والتفصيل، وفي اختلاف لغة الرموز عن لغتنا؛ والأنبياء وخواصّ ورثتهم هم وحدهم من تيسر لهم إزالة هذا الاختلاف وتبليغ الرسالة للناس بوجه صحيح؛ فالأنبياء معصومون عن أن يَضلّوا

أو يخطؤوا، ولو أخطأ اجتهادهم لبيّن الله لهم الأمر فورًا، لأنهم أئمة الخلق جميعًا، وخطأ الأئمة ليس قاصرًا عليهم بل يتعدى إلى من يتبعونهم، فهم إنما يبلغون بلاغًا يضمّ ويحتضن الإنسانية بأسرها.

أما بصدد ما نحن فيه، فما يقوله الإمام محيي الدين بن عربي -مستندًا فيه إلى الكتاب أو السنة أو الإلهامات التي ترد إلى قلبه- حقٌّ، إلا أن بعض الأمور التي انكشفت له رمزًا، واستعصى عليه تأويلها من حيث مسلكه ومشربه ووظيفته وعصره، فقد أوَّلها تأويلًا مخالفًا للسنة، ثم جاء أهل التحقيق كالإمام الشعراني وملا جامي فحاولوا إيضاح ما أراده ابن عربي بتأويلات منطقية.

أما ما ورد في كتاب "الشجرة النعمانية" فقد تحقق بعضه، وسيتحقق الباقي إن قدّر الله ذلك، من ذلك أن محيي الدين بن عربي أخبر بحوادث عن الدولة العثمانية وما بعدها تصريحًا أو تلميحًا، وهو إنما عاش في عهد السلاجقة قبل تأسيس الدولة العثمانية، وعُثر على قبره في عهد السلطان سليم الأول، تُروى عنه كلمة جديرة بالذكر، يقول: "إذا دخل السينُ في الشين ظهر قبر محيي الدين" ومراده بالسين السلطان سليم، وبالشين الشام، ولما فتح السلطان سليم الأول الشام ظهر قبره وعُرِف قدره.

كان محيي الدين بن عربي يتكلم عن أمور معتمدًا على إلهامات ونفحات ربانيّة، فهو لا قِبَلَ له بها؛ إذ لا يتأتى لإنسان من عظم ولحم أن يتحدث عن مثل هذه الأمور؛ لقد توجه إلى الله بكلّ كِيانه، وصار كالملائكة في ماهيته، فوهبه الله -تكريمًا لماهيته- لطافة الأرواح والروحانيين، فنفذ بهذا اللطف إلى حقيقة الأشياء، بل إلى شيء مما كان ومما سيكون، فتكلم عن حوادث غائمة كانت، وعن وقائع مجهولة ستكون، من ذلك أنه تحدث عن نشأة الدولة العثمانية ورقيها،

وعن حوادث تاريخية مهمة كفتح السلطان مراد الرابع لِـ"رُوَان" في ستة أشهر، ونحو ذلك، ومن كراماته الجديرة بالذكر حديثه عن الكهرباء في كتابه الفتوحات؛ الأمر الذي عجب له أديسون وأكبرَه.

ولم ينفرد محيي الدين بن عربي بهذا المجال وإن كان قطبَه؛ فمثلًا أخبر "مشتاق دده البتليسي" عن نقل العاصمة من إسطنبول إلى أنقرة قبل وقوعه بنحو مائة سنة، وكتبت الجرائد عن ذلك لاحقًا.

ومع هذا، فالحقائق التي اطلع عليها هؤلاء العظماء ليست من الأمور التي لا تتغير ولا تتبدل، فالله قادر على تغيير كلّ شيء، ومن ذلك تغيير ما شاهده هؤلاء العظماء وسمعوه وعلموه، فالله تعالى فعال لما يريد يتصرف في كل شيء كما يشاء ﴿**كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**﴾ (سُورَةُ الرَّحْمَنِ: ٢٩/٥٥).

فهو سبحانه يغير كل شيء نشهده، وله أن يغير في "لوح المحو والإثبات" ما لا نشهده ولا نطلع عليه من الحوادث بأبعاد غير التي عهدناها، ﴿**يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾ (سُورَةُ الرَّعْدِ: ٣٩/١٣)، أما أمّ الكتاب فهي علمه سبحانه، والقدَر عنوان من عناوين علمه الإلهي، وما ذكره محيي الدين بن عربي حقٌّ بقدر اطلاعه على هذا، وأما ما أُخبر عنه مما لا يوافق الواقع فإما أنه لم يعلم تأويله الصحيح، وإما أنّه لم يحِن وقتُ هذه الحقيقة بعد، وإمّا أننا لم نُدرِك كنه ما أراد.

والله أعلم بالصواب.

obeikandl.com

حكمة الصلاة على النبي صلى اللّه عليه وسلم

سؤال: إذا كانت رحمات الله تعالى تتنزل على رسوله ﷺ في واقع الأمر، فما الحكمة من صلاتنا ﷺ؟

الجواب: الرسول الأكرم ﷺ نواةٌ لأصول الخير واليمن والبركات، هو أسوة حسنة لنا جميعًا، هو الهادي إلى الطريق القويم، هو المرشد إلى الصراط المستقيم... مرشد لا يَضِلّ ولا يُضِلّ، هو الذي سنّ أعدل الطرق وأقومها.

أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، فسار بهم في هذا الطريق المنير، فهو حقيق بأن ينال مثل أجر كلّ مَن سار في هذا الطريق، ومقتضى القاعدة التي تقول: "**إِنَّ الدَّالَّ عَلَى الخَيْرِ كَفَاعِلِهِ**"[٢٧] أن يُكتب له في سجله من الأجر مثل أجور من تبعه من أمته ﷺ.

ولن يُطوى هذا السجل بوفاة الرسول الأكرم صاحبِ المقام المحمود ﷺ، بل سيحرر فيه على الدوام ما لا يُحصَى من الحسنات والصالحات، وكلما جلّ مقامه اتسعت حدود شفاعته -بمشيئة الله- لتشمل طوائفَ أكبر من أمته ﷺ.

ومن هنا فإنَّه لا بدّ من تناول هذه المسألة من زاويتين اثنتين:

الأولى: إننا بصلواتنا على الرسول الأكرم ﷺ نجدّد عهدنا وميثاقنا معه ﷺ ونزدلف إليه عسى أن نكون من أمته؛ أي إننا نقول له مستشفعين: "لقد تذكّرناك وذكرناك، ودعونا الله وتوسلنا إليه أن يرفع لك ذكرك"، وصلواتنا

(٢٧) سنن الترمذي، العِلم، ١٤؛ المسند لأحمد بن حنبل، ١٣٢/٣٨.

بنية رفع مقام صاحب المقام المحمود ﷺ تتسع بها دائرة شفاعته؛ فيحظى أناسٌ أكثر بهذه الشفاعة.

الثانية: ودعاء الشخص للنبيّ ﷺ برفع القدر والمقام إن هو إلا وسيلة لدخول ذلك الشخص في حِماه ورعايته ﷺ، فتتسع بذلك دائرة الشفاعة في حق هذا الشخص، ومن ثم فنحن أشدّ حاجةً منه ﷺ للصلاة والسلام عليه، وعندما نلجأ إليه ﷺ فذاك إقرار منّا بوجوده وعظمته وإعلانٌ عن صَغارنا وأننا لسنا بشيء أصلًا، فمثلنا كمثل رجلٍ جلّت دولته في عينيه، فالتجأ إليها مستجديًا العون، ونحن كذلك نلوذ به ﷺ ونلتجئ إليه بالصلاة عليه؛ فكأننا بهذا نعرض حاجتنا وحالنا في فقر وعجزٍ وخوفٍ ووجلٍ من يوم عظيم شديد، عسى أن نكون من الناجين.

اللهم اجعلنا ممن يحظى بشفاعة صاحب الشفاعة العظمى ﷺ.

وأزفّ لكم في هذا المقام بشارة جاء بها هذا الحديث: "**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ قَدْ دَعَا بِهَا فَاسْتُجِيبَ، فَجَعَلْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ**"(٢٨).

(٢٨) صحيح البخاري، الدعوات، ١؛ صحيح مسلم، الإيمان، ٣٣٤.

obeikandl.com